الفصل الثالث عشر

مفهوم للعلمنة
في الفكر الإسلامي المعاصر

ـ 1 ـ

واضح من عنوان هذا الفصل أن هناك مهمة يتصدىٰ لها هذا البحث، وهي بناء مفهوم للعلمنة في الفكر الإسلامي المعاصر، وأول ما نسأل عنه، لماذا نتصدىٰ لصناعة هذا المفهوم، بعد أن بلغ مصطلح العلمنة في الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية العربية والإسلامية المفهوم الإجرائي المتداول منذ عقود، علىٰ أنه ـ كما يقال ـ رفض للدين أو رفض للفكر الديني أن يتدخل في الحياة العامة، ورفض لرجال الدين أن يشتغلوا في السياسة، وغيرها من المفاهيم المضللة، والتي لا تنفع الدين الحق ولا العلمانية بهذا المفهوم إطلاقاً، وإثر التساؤلات العديدة علىٰ استعمالي لهذا المصطلح في كتاب سابق[1]، أحببت أن أوضح وأبين ضرورة هذا المصطلح للمسلمين، وللفكر الإسلامي المعاصر.

وأول ما أبينه هو أن التوجه لبناء هذا المفهوم هو في الفكر الإسلامي وليس في الإسلام، وفرق بين الإسلام وهو دين ووحي من الله تبارك وتعالىٰ، وبين الفكر الإسلامي الذي يجتهد المسلمون في فهمه عن الدين، والفكر الإسلامي هو نتيجة عملية التفكير والاجتهاد في القضايا التي تعترض الحياة الإسلامية في العصر الحديث، ومنها قضية العلمنة ومحاورها الفكرية والاجتماعية والسياسية في بلادهم وفي العالم، وبالأخص في الثقافة الغربية التي ينسب إليها ابتكار هذا المفهوم والمصطلح نتيجة صراعها مع الكنيسة في أوروبا[2]، وبالتالي

(1) كتاب: المدخل العلمي والمعرفي لفهم القرآن الكريم، ص 149.

(2) انظر: السياسة والحكم، الدكتور حسن الترابي، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 2003م، ص 63.

يكون مغزىٰ هذا البحث بناء مفهوم للعلمنة في الفكر الإسلامي، حتىٰ يتبين المسلمون وكل الناس كيف يمكن للاجتهاد الإسلامي المعاصر أن يفهم العلمنة في الحياة الإسلامية العصرية، وأن يبين وجهة النظر الإسلامية في هذه القضية وغيرها من القضايا.

إن العلمنة ليست قضية خاصة بثقافة معينة، بقدر ما هي شأن إنساني واجتماعي وسياسي في الموقف من كيفية إدارة الدين في كل ثقافة وفكر ومجتمع، أي هي مواقف أو رؤىٰ نظرية وعملية، في تنظيم العلاقة بين الإنسان والله، والعقل والدين، والدنيا والآخرة وغيرها، بحيث يأخذ فيها الإنسان وعقله ودنياه كافة الحقوق الإنسانية والاجتماعية والسياسية، التي تحترم الإنسان، وتجعله يصنع المجتمع الذي يؤمن به بعقله وعلمه وإرادته ومشاركته الفكرية والاجتماعية والسياسية.

— 2 —

ونصف هذا المفهوم والفكر للعلمنة بالمعاصر، لأن هذه المهمة لم يتصدَّ لها الفكر الإسلامي التراثي، لأنها لم تكن من قضاياه، ولا كان مطالباً بها طالما لم يشعر بها كمشكلة حقيقية في المجتمع، أي لم تكن من قضايا مجتمعه ولا عصره، ولم يتصدَّ لها الفكر الإسلامي الحديث باجتهاد إسلامي علمي عميق وموضوعي، بل كان في معظم كلامه عنها كما لو كانت مشكلة غربية وخارجية فقط، فوقع الفكر الإسلامي وبالأخص من الحركات الإسلامية الاجتماعية والأحزاب الإسلامية السياسية ضحية مفاهيم تراثية عن الدين الإسلامي أولاً، ووقع ضحية معلومات ومفاهيم مضللة عن الحركة الدنيوية في أوروبا ثانياً، ووقع ضحية ترجمة خبيثة ومنكرة لمفهوم هذه الحركة الدنيوية الأوروبية يوم ترجمت هذه الكلمة إلىٰ اللغة العربية بـ" العلمانية".

إن أهم القضايا التي يجب علىٰ العرب والمسلمين أن يجتهدوا فيها، هي القضايا الفكرية العالمية، وبالأخص القضايا التي فيها شبهة العلاقة بين الدين والدنيا كما هي في "العلمانية" الغربية، أو شبهة العلاقة بين الكنيسة ورجال الدين مع رجال الفكر والسياسة بالمعايير

الأوروبية، وغيرها من الشبه التي تفرض نفسها علىٰ الفكر الإسلامي المعاصر، بسبب أن رسالة العرب وحضارتهم ومستقبلهم قائمة علىٰ الإسلام وهو دين أولاً، وبسبب الهيمنة والاستبداد الفكري الذي تمارسه القوىٰ الغربية عليهم ثانياً، وهذا التفكير العصري لا يعني تبعية فكرية أو ضعفاً ذاتياً، وإنما يعني قبول التحدي الفكري، وثقة فكرية وفلسفية واجتهادية في تقديم الجواب الإسلامي علىٰ سؤال العصر وإشكاليات الانفتاح الثقافي العالمي.

— 3 —

وإزاء التحديات الكونية التي يواجهها العرب والمسلمون في عصرهم هذا، وإزاء تمسك العرب والمسلمين بهويتهم الفكرية بإرادتهم واختيارهم، وبحرية تامة منهم ودون إكراه من أحد، لا من آباء وأسر قاهرة، ولا من دوافع قومية وعصبية، ولا من ضغوط تراثية كهنوتية، وإنما عن قناعة تامة توصل إليها شباب العرب والمسلمين بأنفسهم، ويعتقدها الجيل العربي والإسلامي الحالي بعقله وقناعته، لا بد إزاء ذلك من بيان طبيعة البنية الفكرية الواجب العمل لها وعليها في هذه المرحلة، وما تحمله من تحديات حضارية للذات وللآخر.

وأولىٰ هذه الأولويات أن تتوجه جهود العرب والمسلمين العلمية والعملية إلىٰ بيان السبل الكفيلة بفهم الإسلام، فهماً يحقق للعرب والمسلمين المكانة التي تليق بهم بين الناس، والمكانة التي تليق بعقائدهم الإسلامية ومذاهبهم الفقهية والسياسية بين المذاهب العالمية المعاصرة والحضارات الأخرىٰ، فهذه مقاصد الشرع وغايته، وهي مقاصد العقلاء من الناس وغايتهم، أن يكونوا في حالة سوية بين أنفسهم ومع غيرهم من الناس الذين يختلفون معهم في الدين أو الفكر أو الثقافة أو السياسية الشرعية.

— 4 —

لا يمكن للفكر الإسلامي أن يكون حياً ومعاصراً إذا لم يتقدم بالجواب الإسلامي المقنع عقلياً وعلمياً علىٰ قضايا عصره، وإذا لم يقدم المسلمون في المستقبل جوابهم علىٰ قضايا عصورهم القادمة، فالمعاصرة واجب فكري يواجه الأمم الحية، والواثقة من اجتهادها في

القدرة علىٰ التفاعل الحقيقي وليس الوهمي مع الثقافات والحضارات العالمية الأخرىٰ، أي في تقديم جوابهم العربي والإسلامي في القضايا الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية العالمية، ليس علىٰ أساس حقهم في الاختلاف الفكري والفلسفي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي فقط، وإنما علىٰ أساس قدرتهم علىٰ ذلك أيضاً، وبما يقنع أحرار العالم وليس ما يقنع المسلمين فقط.

إن الدوافع الداخلية كفيلة أن تفرض علىٰ المسلمين التفكير في القضايا الفكرية والسياسية العالمية وبناء عقائدهم الإسلامية علىٰ أساسها، حتىٰ لو لم تكن أرضهم وبلادهم ودولهم محتلة فكرياً وسياسياً وعسكرياً من قبل الدول الدنيوية "العلمانية"، ولكن وجود الاحتلال بكل أشكاله يفرض عليهم أن يدخلوا هذا الصراع الفكري وبيان موقفهم منه، وبيان موقفهم من قضاياه المعاصرة وكما تفرضها الدول الدنيوية المتغلبة اليوم، وليس بحسب أمنيات المسلمين فقط، وذلك حتىٰ تستبين لهم طبيعة الدين الذي يؤمنون به، وطبيعة العقيدة التي يعالجون بها قضاياهم ومشكلاتهم، ومقاصد الفقه الذي ينتجونه بفعلهم المعنوي، وباجتهادهم وعبادتهم العلمية، ثم ليكون لهم تصور صحيح عن الأزمات الفكرية التي يتضارب فيها الاجتهاد الإسلامي المعاصر بين رافض ومنكر ومتقبل.

— 5 —

وإن مكانة الدول الدنيوية "العلمانية" المسيطرة علىٰ العالم بتقدمها العلمي، تفرض علىٰ كل الناس العقلاء دراسة التجربة الأوروبية وأسباب المشكلة الدنيوية في تاريخهم، ومعرفة كيف تمكنوا من تنظيم هذه العلاقة في الحضارة الغربية الأوروبية والأمريكية، وكيف تمكنوا بهذا الحل من تقوية أنفسهم ودولهم، حتىٰ لا ينخدع بذلك أي باحث عن التقدم في العالم، فيظن أن ذلك وقع بالخلاص من الدين ولو كان حقاً وصدقاً، وبالأخص إن كان من العرب والمسلمين، الذين نظم لهم الإسلام هذه العلاقة دون تعارض، ودون أن يكون الدين أو التدين الصحيح عقبة في طريق التقدم الدنيوي.

أما أسباب نشوء المشكلة في أوروبا، فقد كانت بين الكنيسة الاستبدادية باسم الدين المتحالفة مع الاستبداد الملكي باسم قداسة العنصر الأسري للملوك وذريتهم من جهة، والعلماء ورجال السياسة المدافعين عن حقوق المظلومين من الناس من جهة أخرىٰ[1]، وليس بين الدين والعلم كما خدع بذلك عامة العرب والمسلمين في قراءتهم الأولية للصراع الذي وقع في أوروبا تحت شعارات تعارض العلم والدين، أو تعارض العقل والوحي، أو تعارض الدنيا والآخرة أو غيرها.

وحتىٰ لو كان الصدام في الحضارة الغربية بين الدين الكنسي والدنيا، فهل كان حالة عامة أم خاصة بتصور الغرب للدين الكنسي وطبيعة رسالته في الحياة؟ وأيضاً إذا ما كانت هذه الحالة من طبيعة الدين الكنسي المستبد الذي كان موجوداً في الغرب يومئذ، فهل هذا ينطبق علىٰ كل دين مهما كان صدقه وصوابه، وبالأخص بعد أن ثبت لعلماء الغرب نفسه أن الكتاب الموصوف بالمقدس عندهم قد شاركت الأيدي البشرية في تأليفه والزيادة عليه والتغيير فيه لقرون أو عقود مديدة، كما ثبت في نقد الكتاب المقدس الأدنىٰ والأعلىٰ وكما ثبت في كتب تطور الإنجيل[2].

وآخر الدوافع المعاصرة التي تفرض علىٰ المسلمين دراسة العلمنة وبناء فكر إسلامي عنها، بيان الموقف من الأزمة التي تصنعها أمريكا اليوم بين الدين والسياسة، بإخراج كل معنىٰ للسياسة من الدين في العالم، وبالأخص عند العرب والمسلمين، طالما أن الدين قد يستغل في تشكيل قوىٰ عربية وإسلامية وعالمية ضد الإمبراطورية الأمريكية الحديثة[3].

---

(1) انظر: الصراع بين البرجوازية والإقطاع، الدكتور محمد فؤاد شكري، دار الفكر العربي، مصر، 1/ 144. ومقالة: حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق، للدكتور علي بن حسين الحجوبي، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 31، 2003م.

(2) انظر: تطور الإنجيل، تأليف إينوك باول، ترجمة ودراسة أحمد إيبش، دار قتيبة، دمشق وبيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ ـ 2003م.

(3) انظر: الإسلام شريكاً، (دراسات عن الإسلام والمسلمين)، تاليف: فريتش شتيبات، ترجمة الدكتور عبد الغفار مكاوي، عالم المعرفة، الكويت العدد (302)، ابريل 2004م.

— 6 —

أما من حيث المصطلح، فقد عرفت كلمة العلمانية اصطلاحاً ولغة فقيل:(العلمانية بالإنجليزية: (SECULARISM) وترجمتها الصحيحة: " اللادينية " أو الدنيوية، وهي دعوة إلىٰ إقامة الحياة علىٰ غير الدين، وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العلم (SCIENCE) والمذهب العلمي (SCIENTISM)[1].

وهذا يعني أن الترجمة غير صادقة لغة ولا اصطلاحاً، فلم يترجم المصطلح الإنجليزي لفظاً ولا معنىٰ كما هو في اللغة الإنجليزية بالدنيوي أو اللاديني وهي ال: SECULARISM، وفي المقابل لو ترجمت العلمانية من اللغة العربية إلىٰ اللغة الإنجليزية، فمعناها (SCIENTISM)، أي أن الترجمة العربية لا تفي هذا المعنىٰ في اللغة الإنجليزية ولا اللغة الإنجليزية تفهم عن العرب معنىٰ الكلمة لغة ولا اصطلاحاً.

وبينت بعض المصادر العربية خطأ هذه الترجمة، وبينت أن السكيولارزم SECULARISM، في تعريف الغربيين لها: "الروح الدنيوية" و" الاعتقاد بأن الدين والكنيسة لا دخل لهما في شؤون الدولة"، وأنها: " اتجاه في الحياة أو في أي شأن يقوم علىٰ مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً "[2]، والدنيوية في عرف المستشرقين غير العلمانية، فقد نقل الدكتور سفر الحوالي عن المستشرق "أربري" في كتابه " الدين في الشرق الأوسط" عن الكلمة نفسها (SECULARISM): " إن المادية العلمية والإنسانية

---

(1) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، 1409هـ ـ 1989م، ص 367. وانظر: تهافت العلمانية، الدكتور عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، 1399هـ 1979م، ص7. وكتاب: سقوط العلمانية، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية 1980م. وكتاب: العلمانية، نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية، سفر بن عبد الرحمٰن الحوالي، دار مكة للطباعة، الطبعة الأولى 1402هـ ـ 1982م، ص 21. وكتاب: فصل المقال فيما بين العلمانية والماسونية من اتصال، تصنيف سامي عطا حسن، الدار السلفية، الطبعة الأولى 1988م ـ 1408ه، ص 122. وكتاب تحطيم الصنم العلماني، محمد شاكر الشريف، دار البيارق، الأردن، الطبعة الأولى 1421هـ ـ 2000م، ص 7.

(2) العلمانية، سفر الحوالي، 22، نقلاً عن قاموس "العالم الجديد" لوبستر.

والمذهب الطبيعي والوضعية كلها أشكال للادينية، واللادينية صفة مميزة لأوروبا وأمريكا، ومع أن مظاهرها موجودة في الشرق الأوسط فإنها لم تتخذ أي صيغة فلسفية أو أدبية محددة، والنموذج الرئيس لها هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية)[1].

وهذا يعني أن هذه التعريفات كانت صادقة في تعريف القارئ العربي المسلم بمعنىٰ: (SECULARISM) في الثقافة الغربية، وبررت بذلك رفضها لإدخال مفهوم الدنيوية في الثقافة الإسلامية، لأن الفكر الإسلامي قادر علىٰ التوفيق بين الدين والدنيا من غير ظلم، إلَّا أن هذه المصادر التي هاجمت (SECULARISM) بالمفهوم الغربي، لم تعلن رفضها للترجمة المضللة، ولا يعقل أن يدخل مترجم أو مفكر علىٰ أمة مثل الأمة الإسلامية مثل هذا المصطلح المضلل دون محاسبة ولا مراقبة، ولكن بعض أصحاب التوجهات الإسلامية وافقت علىٰ استعمال هذه الترجمة الظالمة لتوظيفها في مشروعها الفكري ظانة أنه يخدم مواجهتها للغرب وموقفه من الدين ولو كان باطلاً.

— 7 —

فإذا كانت الحداثة الغربية قد جعلت العقلانية والعلم التجريبي والمنفعة أساس بنائها الدنيوي، وجعلت هذه الحركة الدنيوية في مقابل الاستبداد الديني الكنسي، وقامت ببناء تصور جديد عن الوجود والحياة الاجتماعية والسياسية، يقوم علىٰ الحرية والقوانين العلمية للوجود والطبيعة،، وعلىٰ الحقوق الإنسانية والثقافية والفكرية، وعلىٰ المشاركة والمساواة والعدالة في الحياة الاجتماعية والسياسية، وتم الاصطلاح علىٰ وصف هذه الحركة بالسكيولارزم (SECULARISM) ومعناها الدنيوية، لأنها مقابل أو ضد التدين الكنسي الظالم والخضوع للاستبداد الملكي الظالم، فلم يكن أمام العقلاء والأحرار من البشر إلَّا اختيار طريق التحرر من قيود التحالف الديني الكنسي والملكي الظالم، الذي كان يستغل الدين الكنسي ببيع صكوك الغفران، والمظالم الأخرىٰ.

---

(1) العلمانية، سفر الحوالي، 23، نقلاً عن: A. J. ARBERY VOL.2; 606-607 Religion in Middle East

وإذا لم يكن أمام أحرار أوروبا إلّا التخلص من ظلم الكنيسة والملكية أو إخراجهما من التأثير على الحياة العامة والسياسية إذا أردوا النهضة، وإذا لم يكن من إمكانية أمامهم لاختيار الإسلام ديناً بديلاً عن الدين الكنسي، الذي تعرفوا عليه عن طريق الأندلس وصقلية والحملات التبشيرية، لأنهم كانوا متهمين من الكنيسة بالتبعية إلى العقلانية الإسلامية والرشدية حتى يرغب الناس عنهم، فكيف إذا أعلنوا إسلامهم علانية، ودون أن يجدوا من الدولة العثمانية أو المسلمين أي دعم يقربهم من الإسلام والمسلمين، فأخفوا مصادر فكرهم إن كان عربياً أو إسلامياً، خشية على أنفسهم وعلى أرواحهم ورميهم بالزندقة والإلحاد[1]، وسياسة منهم في عدم إحباط جهودهم من المعارضين لهم إذا عرف أن مصادر فكرهم من العرب والمسلمين، وجردوا أفكارهم عن كل انتماء للفكر الديني وبالأخص العربي والإسلامي، فكانت هذه الحركة الدنيوية الأوروبية التي أخفت مصادر فكرها وأخفت هويتها الدينية عن قصد وتعمد حتى لو كانت من مصادر أو لأهداف كنسية أيضاً.

لقد كانت "الدنيوية" هي خيار الثورة في أوروبا، ولكن ترجمة هذه الحركة إلى اللغة العربية بـ (العلمانية)، قام على التضليل من أول لحظة، وهو ما يحتاج من المفكرين العرب والمسلمين إلى تفكير وتحليل، لأن هذه الترجمة الخاطئة ترسخت في أذهان المفكرين العرب وعموم المسلمين كمصطلح فكري، وكمفهوم إجرائي، بالرغم مما فيها من أخطاء من جهة إخراجه حلاً لمشكلة الدين والدنيا في الحضارة الغربية في الماضي والحاضر، ثم في جعله حلاً عالمياً لحل المشاكل المشابهة في العالم، ومنها ما يظن أنه قائم في العالم العربي والإسلامي، ولكن الأخطر منه محاولة اتخاذها حلاً للعلاقة بين الدين والسياسة بالمفهوم الغربي من قبل بعض المفكرين العرب والمسلمين، والأخطر منه عدم طرح المفكرين العرب والمسلمين حلاً لهذه العلاقة باجتهاد جديد، وتوقفهم عند محاربة مصطلح العلمانية في العالم الإسلامي، دون كشف للحقيقة بما تحمله هذه الكلمة من مفهوم ومصطلح لا يعبر عن الحقيقة لا في أوروبا ولا في الحياة العربية والإسلامية.

---

(1) انظر: الاستشراق، إدوارد سعيد، ص 103.

ـ 8 ـ

إن الاجتهاد العربي والإسلامي قادر على إخراج مفهوم للعلمانية مقابل للمفهوم الدنيوي الغربي، ونابع من فهم القرآن والإسلام، ومنبثق عن الظروف العربية والإسلامية في هذه المسألة بالذات، وهذا لا يعني اعترافاً بوجود أزمة في هذه المسألة في الإسلام نفسه، وإنما اعترافاً بوجود المشكلة في الواقع العربي وبين المسلمين، بعد أن أُخرج تطبيق الإسلام الكامل من الحياة العربية والإسلامية منذ قرون وعقود، وطالما وجد مطلب ثقافي أو تحدٍّ فكري أمام الثقافة العربية والإسلامية، في إخراج مفهوم يعبر عن الموقف الإسلامي منها، وبالأخص عند استعمال هذا المصطلح بالمفهوم العربي والإسلامي وليس بالمفهوم الغربي فقط.

إن ديدن العقائد الإسلامية، وعادة العلماء المسلمين عبر التاريخ الإنساني الذي عاصرهم وعاصروه، أنهم لم يبتعدوا عن قضاياه ولم ينفصلوا عن عصره، وبالأخص في خيرة القرون الإسلامية الأولىٰ، ولم يتجاهل المسلمون دورهم الحضاري والشهودي إلَّا في عصور الضعف، إن الإسلام يفرض عليهم بيان اجتهادهم لأهل عصرهم وحل مشكلاتهم، سواء كانت في العقيدة وتنظيم العلاقة مع الخالق سبحانه وتعالىٰ، أم في أمر حياتي يتطلب استعمال العقل والتفكير به إنسانياً ودنيوياً قبل التفكير به دينياً، أم في الصورة التي يوضع فيها الدين في الحياة، أم في العلاقة التي تصنع فيها التصادمية مع الدنيا، أم في طبيعة أهل الدين أو أوصيائه أو كهنته، فلا بد أن يكون واضحاً لدىٰ المسلمين أولاً موقف الإسلام من العلاقة بين الدين والدنيا وأن المسلمين مطالبون بتقديم اجتهادهم الفكري والاجتماعي والسياسي في هذا العصر، وليس فقط بحسب ما تم صياغته في التاريخ العربي والسياسي التراثي.

ـ 9 ـ

وأول ما يجب قوله: إن تنظيم العلاقة بين الدين والدنيا منصوص عليه في القرآن الكريم وفي بيانه النبوي الشريف، أي في الإسلام بصورة واضحة وجلية، ولكن المطلوب هو الاجتهاد العقدي الجديد الذي يحدد الموقف بين الدين والدنيا بحيث يجتمعان على مصلحة

الإنسان والناس، ولا يطغىٰ أحدهما علىٰ الآخر، وبحيث لا يخسر الإنسان أحدهما، أو لا يكون الإنسان أمام اختيار أحدهما دون الآخر، وبالأخص أن الدين الإسلامي لم يأت لينهىٰ الإنسان عن الانتفاع بالدنيا وتحقيق مصالحه ورغباته فيها، طالما لم تتعارض مع حقوق المجتمع الذي يشارك في تكوينه وبنائه.

فالإسلام وحي من الله، والله تبارك وتعالىٰ أنزل آيات في القرآن تهدي إلىٰ الصراط المستقيم في الإيمان، والإيمان هو التصديق بالعلم، سواء كان من مصدر الوحي أو الدين، أو كان من مصدر العلم المكتسب من النظر في الأرض، والتفكير في السماوات، أو التبصر في الأنفس والآفاق، ولم يتوقف الأمر علىٰ التصديق بالعلم، وإنما أمر الإسلام بالعمل الصالح، والتصديق بالعلم والعمل الصالح يعمل بهما في الدنيا، والدنيا بكل ما يحويه معناها هي ميدان العلم والعمل، وأما الدار الآخرة فليست دار عمل، والعمل الدنيوي الإسلامي يهدف إلىٰ صلاح الإنسان وهو فرد وصلاح الناس وهم جماعة، وصلاح المجتمع المدني المسلم المؤمن.

وجاء الإسلام بالثقافة التي يحتاجها الإنسان حتىٰ يكون علىٰ معرفة وعلم بالكون والخالق سبحانه وتعالىٰ، فإذا أدرك الإنسان أن لهذا الكون خالقاً وصدَّق أنه مخلوق لله تبارك وتعالىٰ، ورضي أن تكون له بخالقه علاقة قبول وسلام وعدم عداء ولا جحود فقد أسلم وجهه لله، وهذا هو المسلم، فالمسلم من أسلم وجهه لله وأقبل عليه راضياً بأنه الرب الخالق ورب العالمين، ولكن الإسلام لم يوقف العلاقة علىٰ مجرد التصديق بأن هذا الكون مخلوق، وإنما أرشد الإنسان المسلم إلىٰ طلب العلم وأن يكون من العلماء، وأن يتفكر في خلق السماوات والأرض، حتىٰ يكون إسلامه قوياً ويحتمل أن يتحول إلىٰ علاقة وثيقة مع الله تبارك وتعالىٰ، وهي علاقة الإيمان، أي علاقة التصديق بأن الله تبارك وتعالىٰ عالم وأنه خلق كل شيء بقدر.

ـ10 ـ

الإسلام هو إسلام الوجه لله، والإيمان بالقدر هو التصديق بالعلم الذي خلق الله عليه الأشياء، أي هو التصديق بأن الأشياء تعمل بقانون دقيق، وأن الإنسان مطالب أن يكتشف

هذا القانون والقدر حتىٰ ينتفع بها علىٰ أكمل وجه وأحسن حال، فالإيمان بأن الأشياء مخلوقة بقدر، لا يمنع الإنسان المسلم المؤمن أن يسعىٰ في اكتشاف هذا القدر، والعلم به والعمل علىٰ أساسه، طالما أن الله أمر بالبحث عنه، وطالب باكتشافه، لأنه الله تبارك وتعالىٰ يعلم أنه في اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان قانون شيء فإنما هو يكتشف حقيقة علمية وقدراً علمياً من أقدار الله تبارك وتعالىٰ، فيزداد إيمان عبده العالم علماً فوق علم، وإيماناً فوق إيمان.

إن التصديق بالعلم المنزل من الله تعالىٰ يوافق العلم المكتسب عن طريق البحث العقلي والعلمي في الطبيعة والكون والحياة، فإذا كان النظر في الموجودات هو الفلسفة كما عرفها ابن رشد، فإن العقل البشري يتكون من العلم المنزل في القرآن الكريم وبيانه ومن العلم المكتسب بالنظر في الموجودات أي العلم المكتسب بالفلسفة، وبذلك يكون الإنسان قادراً علىٰ أن يجمع علم القرآن وعلم الفلسفة في عقل واحد، ويكون هذا العقل مؤمناً بالحقائق المنزلة ومؤمناً بالحقائق المكتشفة، فلا يتعارض البناء العقلي عند الإنسان طالما لم يوظف هو موقفه من الدين أو من الفلسفة في اتجاهين متعارضين.

أما الإيمان بالدار الآخرة، فهي ضمانة التزام الإنسان المسلم المؤمن أن ينتفع بعلمه الديني وعلمه الدنيوي دون أن يظلم أحداً من الناس ولو لم يكن المظلوم مسلماً، وكذلك المجتمعات المسلمة والمؤمنة قادرة من خلال أجهزتها الشورية الحاكمة أن توفق وتجمع بين القراءات الدينية والدنيوية، دون مظالم ولا مفاسد، شريطة أن تكون هذه الأجهزة الحاكمة شورية وشرعية، وغير مستبدة وليست من أسرة متغلبة تحكم باسم الدين، أو أسرة دنيوية تحكم باسم العلمانية، لأن العمل هو في الدنيا ومن أجل المصالح الدنيوية التي تعود علىٰ العباد بالمنافع، والدار الآخرة دار حساب وليست دار عمل، أي أن الإسلام دنيوي في رسالته أخروي في حسابه وجزائه.

— 11 —

إن العلمنة بمنظور الفكر والاجتهاد الإسلامي هو أن يتم تفسير الإسلام تفسيراً عقلياً وعلمياً، في مجال الكون والطبيعة والإنسان والحياة والعلاقات المنظمة لها، بما ينفع الإنسان والناس معاً، ودون أن يعتدي أحد علىٰ الآخر، أو يستبد به، وأن معنىٰ أنها مخلوقة بقدر، أنها موجودة بقانون ينفع الإنسان والناس في الدنيا وعلىٰ هذه الأرض وفي السماء التي يتحرك فيها الإنسان، لأنه في مجاله سيد هذه الطبيعة وهو الخليفة عليها.

والمسلم المؤمن والدولة المسلمة المؤمنة مطالبون بقراءتهم أن يكتشفوا قوانين الوجود الفلكية والفيزيائية والحياتية، وأن يكتشفوا قوانين الخلق التي خلق الناس عليها بقدر، أي أنهم مطالبون أن يكون إيمانهم بالقدر هو إيمانهم بالعلم الذي خلق الله وفقه الأشياء، أي أن مفهوم أن الدنيا مخلوقة بقانون وتقدير، هو أن يعلم أنها مسخرة للإنسان والناس بهذا القدر حتىٰ تنتفع به، وبقدر علمها بالقانون يكون علمها بالقدر، فالقدر قانون علمي خلق الله الأشياء عليه، وعلمنة النظرة إلىٰ الكون تعني النظر إلىٰ الكون والطبيعة بعلم، وليس بتسليم دون فائدة أو نفع أو مصالح للناس.

وفي مجال الحياة الإنسانية، أن الناس أخوة في الإنسانية فالأب واحد هو آدم عليه الصلاة والسلام، والأم واحدة هي حواء عليها الصلاة والسلام، والناس في الدنيا متساوون في الحقوق والواجبات، ولا يوجد إنسان أفضل من إنسان في الخلقة، وعلمنة الحياة تعني النظر إليها بقوانين الحياة المستقيمة فعلاً، التي تجعل الناس يتشاركون في علمهم وعملهم بسلام.

وإذا ما تزاوجوا فإنهم سواء في حقوق الزواج والتكاثر وفي تنظيم العلاقات الأسرية والاجتماعية التي يصنعونها، وإذا وقع بينهم التنازع واستطاعوا رفعه فقد توفق بينهم لما فيه خيرهم، وإلَّا فقد أنزل الله شريعة تحكم بين الناس بالعدل، فعلمنة الحياة الاجتماعية قيام كل أطرافها بالعلم والعمل الاجتماعي العادل.

وإذا أقاموا الكيان السياسي الذي يقوم علىٰ مصالحهم، فإنهم متساوون علىٰ هذا القيام

بما يحقق مصالحهم، أي أنهم متساوون في الحقوق السياسية، وأن السياسة هي شأن دنيوي لأن الناس هم الذين يقومون علىٰ مصالحهم بما ينفعهم وهم أحق به من أي مستبد سواء باسم الدين أو باسم الدنيا، وإذا وقع بينهم نزاع فالشرع يحكم في هذا النزاع ما لم يحل بينهم بالتراضي، ومن خالف في شيء من ذلك فلن يفر من العدالة ولا من الحكم الفاصل، فكل الناس آت يوم القيامة فرداً، ليفصل الله بينهم بالحق وهو أحسن الحاكمين.

— 12 —

كان من المفروض علىٰ علماء المسلمين بعد تسرب الخلل في حياتهم الإسلامية منذ قرون وبعد العض علىٰ الملك في العهد الأموي إلىٰ اليوم، وبعد العض علىٰ العلم في العهد العباسي وبعده إلىٰ اليوم، ومنذ العض علىٰ الولاية الصوفية منذ العهد المملوكي والعثماني، أن تتوجه جهودهم واجتهاداتهم إلىٰ تنظيم الحياة الإسلامية من جديد، باجتهادهم وتفكيرهم، أما وأن ذلك لم يتم من العلماء وهم أصحاب مدارس عقدية ومذاهب فقهية، وملتزمون بقراءتهم المذهبية المغلقة، ومتخذون من التراثية المنهجية الوحيدة في بقاء المدرسة والمذهب والولاية والطريقة، ومن سار علىٰ دربهم من الحركات الإصلاحية والجمعيات الدينية والأحزاب الإسلامية، ولكن شيئاً من ذلك لم يقع.

كان من المفروض بعد ذلك أن تتنبه الثلة الواعية من أبناء المسلمين، الأحرار في تفكيرهم، المستقلين في اجتهادهم، بالأخطار المحدقة بالفكر الإسلامي في ذلك الوقت، وعدم قدرته في ذلك الوقت علىٰ مواجهة التحديات، وعجزه عن تعبئة الأمة فكرياً لتأسيس النهضة علىٰ فكر إسلامي جديد، وعدم ترك الساحة للفكر الديني التراثي أن يواجه العصر، وعدم تركها أيضاً للفكر العلماني الدنيوي الذي عجز عن تحقيق النهضة، بسبب تقليده للغرب في حداثته وعلمانيته.

إن المسؤولية اليوم ملقاة علىٰ أساتذة الجامعات العربية والإسلامية وطلابها في كل تخصصاتها الإنسانية والعلمية والفلسفية والشرعية، أن تواجه التحديات الفكرية العصرية،

وتبني مفهوماً للعلمنة في الفكر الإسلامي المعاصر، ورفض هذه الترجمة الخبيثة، قبل رفض المصطلح بالمفهوم الغربي، وإذا كان ولا بد من مسايرة المصطلح لشيوعه وانتشاره، فلا بد من تقييد المرفوض بالفكر الغربي الأوروبي، فيقال أن المرفوض هو العلمانية بالمفهوم الغربي، أو العلمانية الغربية، لأن من حق العرب والمسلمين والحركة الإسلامية قبل غيرها أن تقدم مفهومها للعلمانية من وجهة نظر إسلامية، أي أن تقول هذه هي العلمانية الغربية.

إن بناء مفهوم للعلمنة في الفكر الإسلامي المعاصر، أو إحداث مفهوم العلمانية الإسلامية، أي العلمانية بالصفة الإسلامية[1]، مطلب فكري يوجبه الشرع والعقل، وذلك باستنباط معنىٰ للعلمانية الإسلامية من القرآن والبيان النبوي الشريف، بما ينظم علاقة الدين بالدنيا، والعقل بالوحي، والدولة بالمصالح، وفي رأي البعض "الإسلام دين علماني في جوهره، ومن ثم لا حاجة له لعلمانية زائدة عليه مستمدة من الحضارة الغربية"[2]، وهذا قول صحيح يحتاج إلىٰ تعمق في البيان واختبار في الواقع، ومعيار في النجاة.

(1) انظر: المدخل العلمي والمعرفي لفهم القرآن الكريم، فصل علمنة الفكر الإسلامي ص 149.

(2) حوار المشرق والمغرب، د. حسن حنفي ود. محمد عابد الجابري وغيرهما، تقديم جلول فيصل، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1990م، ص 45.